كلمة

البروفيسور ماركو إمباجليازو

رئيس جمعية سانت إيجيديو

لقد جئت من الاجتماع الكبير بين الأديان في روما، برعاية جمعية سانت إيجيديو، بحضور البابا فرانسيس، تحت عنوان «صرخة من أجل السلام». وقد سعى ممثلو الديانات الكبرى في العالم معًا للحصول على إجابات للتساؤلات التي نطرحها هنا الآن والتي لا تقدمها الدول في كثير من الأحيان. إن ثمة رؤية مشتركة وطريق مشتركة للزعماء الدينيين بشأن القضايا التي تمس حياة الشعوب والذين يسبقون غالبا من هم في الحكومة. وهذا هو نتيجة اللقاءات العديدة التي تم الترويج لها على مر السنين، خاصة منذ الاجتماع الذي عقد في أسيزي (إيطاليا) عام 1986 والذي كانت فيه جمعية سانت إيجيديو أحد الجهات الفاعلة البارزة.

كتب روجر سكروتون، أحد الفلاسفة البارزين في الفكر المحافظ في أوروبا، أن «البيئة هي المثال الأكثر وضوحًا للتحالف بين من هم موجودون الآن ومن كانوا موجودين قبلهم، ومن سيأتون للوجود بعدنا». وثمة بيان للأكاديمية البريطانية مهم بشكل خاص؛ حيث يشير إلى وجود علاقة متينة لا تنفصم بين رعاية العلاقات بين الأجيال والخليقة. والأديان هي القادرة على الكشف عن هذه العلاقة؛ لأنها مشبعة بجهود توحيدية قوية ولأنها تربط بين عدد كبير من البشر عبر الأزمنة وفي نفس الوقت عبر الأماكن. وبالتالي فهم يدركون الوحدة في التنوع ومزية الانفتاح والتناغم في علاقة الأجيال بالعالم الطبيعي الذي يغمرهم بفيضه.

وفي عام 2010، كتب البابا بنديكتوس السادس عشر في رسالته السنوية لليوم العالمي للسلام المكرسة للموضوع البيئي: «يبدو أن هناك حاجة ملحة (. . .) لتحقيق التضامن المخلص بين الأجيال. فلا يمكن

أن تتحمل الأجيال القادمة التكاليف الناشئة عن استخدام الموارد البيئية المشتركة (. . .) يجب استخدام الموارد الطبيعية بحيث لا يترتب على الفوائد المباشرة عواقب سلبية على الكائنات الحية، البشرية وغير البشرية، الحالية والمستقبلية، وبحيث لا تتسبب حماية الملكية الخاصة في إعاقة التوجه العام للحصول على النفع؛ وبحيث لا يترتب على التدخل البشري الإضرار بخصوبة الأرض، وذلك من أجل الحاضر ومن أجل المستقبل». لقد تلقينا من الآخرين النظام البيئي الذي نعيش فيه ونستفيد منه؛ ونحن ندين به للآخرين، فإنه وإن لم يكن في الحالة الفضلى، فعلى الأقل لأنهم هم الذين نقلوه إلينا. إنَّ استمرارية التاريخ تتحقق من خلالنا، مما يوفر لنا الأصول التي يجب علينا، بصفتنا وكلاء، القيام بمهمة إدارتها والتفكير في المستقبل وفي الذين سيأتون بعدنا.

إن الأسفار العبرية والمسيحية تعلن أن «اللَّه خلق كل شيء صنعه في أحسن صورة». والحقيقة أن الكلمة اليونانية «أحسن» تشير إلى الجمال وليس فقط إلى الخير: لقد خُلِقَ العالم جميلًا على يد خالق واهب للمحبة. ويضيف برثولماوس، البطريرك المسكوني ورائد التفكير المسيحي في البيئة أنه «بالنسبة لهذا الإيمان الأساسي بقدسية وجمال الخليقة، توحد الكنيسة الأرثوذكسية مفهومًا خاصًّا بها يمثل نقطة بالغة الأهمية وهو: مفهوم التجليات الكونية».

ولسوء الحظ فإن برثولماوس يذكر مرة أخرى أنَّ «الإنسان قد تحول من كونه مستخدمًا يشعر بالامتنان إلى مراوغ جشع». ويقول الحاخام ديفيد روزين: «من منظور الكتاب المقدس، فإن أي تدهور سواء أكان للإنسان

أم لنظامنا البيئي يعد إثما كبيرا في حق اللَّه. لذلك، يجب أن ننظر إلى الأزمة البيئية الحالية بنفس الطريقة التي ننظر بها إلى أزمة دينية تتطلب أن يكون رجال الدين والعقيدة في طليعة تذكيرنا بمسؤوليتنا وبالواجب الديني لحماية بيئتنا واستعادتها».

ومن هذا المنطلق، كتب البابا فرانسيس في رسالته العامة الاجتماعية «كُنْ مُسَبَّحًا، يا سيِّدي» 'نصًا أساسيًا حول قضية البيئية المعاصرة. ومن بين العديد من الموضوعات، يُفَصِّل البابا موضوع بيئة العيش معًا والمسؤولية المشتركة. «إن البيئة البشرية والبيئة الطبيعية تتدهوران معًا» و«يصبح النهج البيئي الحقيقي دائمًا نهجًا اجتماعيًا (. . .) من أجل الاستماع إلى صرخة الأرض بقدر الاستماع إلى صراخ الفقراء». وثمة تذكير قوي هنا ليس فقط بجرح عدم المساواة، ولكن أيضًا بإحدى مفارقات العولمة الكبرى: عدم القدرة على التواصل والفصل الصارخ بين عالم الأغنياء وعالم الفقراء، في وقت تزداد فيه العلاقات المتشابكة عمقًا.

وتعكس أرقام أزمة الغذاء العالمية التفاوتات الكبيرة على هذا الكوكب: وفقًا لبيانات برنامج الغذاء العالمي، ارتفع عدد الأشخاص الذين يعانون من انعدام الأمن الغذائي الحاد إلى 345 مليونًا في عام 2022، أي أكثر من ضعف العدد المسجل في عام 2019؛ حيث كان هناك 135 مليونًا فقط. وفي فترة ما بين الوباء والحرب في أوكرانيا، ووفقًا لوحدة الاستخبارات الاقتصادية، زاد على هذا الكوكب عدد الأشخاص من غير المتأكدين من الحصول على قوت يومهم من 440 مليونًا إلى 1,6 مليار. ومن بين هؤلاء، هناك 250 مليونا على شفا المجاعة. وتؤكِّد منظمة الأغذية والزراعة أن 53 دولة تعتمد بنسبة تصل إلى 100% على أوكرانيا في الإمدادات.

يسلط مثال الفيضانات الأخيرة في باكستان الضَّوء على حقيقة أخرى تثير المزيد من الانزعاج. لقد تسببت انبعاثات الكربون الصادرة من البلدان الصناعية في حدوث تغير المناخ. لكن البلدان الفقيرة والنامية ذات الكثافة السكانية العالية والموارد المحدودة هي أول من يعاني من الآثار المدمرة لتغير المناخ. هناك تمرد في الأرض يضرب الشعوب بشكل أعمى ويصرخ مستغيثًا: أنت لست بإله. وتحتوي النصوص الأساسية في الإسلام على العديد من المبادئ حول الإشراف على الخليقة، والتي مكنت في العقود الأخيرة من تطوير لاهوت (عقيدة) بيئي حقيقي.

«أي نوع من العالم نرغب في نقله إلى من سيأتون بعدنا، إلى الأطفال الذين على وشك بلوغ رشدهم؟» سؤال من الأسئلة التي طرحها البابا فرانسيس في رسالته «كُنْ مُسَبَّحًا، يا سيِّدي». وهذه أسئلة أساسية يجب توجيهها إلى محور اهتمامنا. إن عدم طرح هذه التساؤلات لا يعرض للخطر أجيال المستقبل واستدامة وجودهم فحسب، بل يعرض «كرامة أنفسنا ذاتها» للخطر. إن هذا هو موقف الفاسد الذي يمضي قدما في «اللامسؤولية التي تتسم باللامبالاة»، مع «السلوك المراوغ، (. . .) ويؤجل القرارات المهمة، ويتصرف وكأن شيئًا لم يكن». لقد وصف البابا فرنسيس الفساد ذات مرة قائلا بأنه «نصبب نتيجة التعالي». وعلى العكس من ذلك، هناك حاجة اليوم إلى رجال يعتقدون أنه يمكنهم أن يكونوا أفضل مما هم عليه. وبهذا المعنى، يجب أن تكون قدوة ورسالة الزعماء الدينيين واضحة ومتسقة ويجب أن يكونوا قادرين على تخيل تلك المسارات نحو التغيير الذي لا يزال مفقودًا في عالمنا.